



## سيرة أحمد فارس الشدياق وأبرز منجزاته

(١٨٠١ - ١٨٨٧)

### تمهيد

أحمد فارس الشدياق ركن كبير من أركان النهضة العربيّة في العصر الحديث، وأحد أبرز بُنائها على الأسس الراسخة التي قامت عليها. وهو "الثائر الأوّل في البيان العربيّ"، وقد حمل لواء التجديد أينما حطّت به الرحال<sup>١</sup>. شخصيّته جامعة وعقله موسوعيّ. كان "جاحظ زمانه"، و"فولتير" جيله، و"خليل" القرن التاسع عشر<sup>٢</sup>. وهو، بين الأدباء العرب، أوّل من وضع ترجمة ذاتيّة لنفسه ضمّنها مؤلّفه الشهير "الساق على الساق" في ما هو الفارياق<sup>٣</sup> الذي يستوي فيه وكبار المؤلّفين العالميين في هذا الباب<sup>٤</sup>. كان "جوّابة" زمانه، جاب بلداناً عديدة، وكان له فيها كلّها مكانة مرموقة قلّ أن فاز بمثلها كاتب آخر في زمانه. عمّر وشارف التسعين، وكاد أن يملاً القرن التاسع عشر برمّته. وفضلاً عن ذلك فهو "من كتّاب النضال: حارب وجاهد، وناظر وناضل، في سبيل حرّيّة الرأي والفكر، والعقيدة والقول"<sup>٥</sup>. ولم يجانب مارون عبّود الصواب، ولا جافاه، حين أسماه، بحقّ، "صقر لبنان"<sup>٥</sup>.

### إشكاليّة سيرته

يحيط الغموض، والتضارب في المعلومات، بالكثير من مفاصل سيرة الشدياق. ولا يفيدنا كثيراً في إجلائهما العودة إلى كتاباته. فبعضها فُقد، وبعضها الآخر لا يزال مخطوطاً، والبعض الثالث المطبوع نفدت طبعاته القديمة. أضيف إلى ذلك أنّ معظمها وقع "ضحية التعقيم والرقابة والمنع، وحتّى التّحريم"، وذلك راجع "أساساً إلى نقده الدين والأخلاق ومعالجته الجريئة لقضايا المرأة والجنس وجذريّة أفكاره السياسيّة والاجتماعيّة"<sup>٦</sup>. وفي "الفارياق"، كتاب السيرة لديه، يختلط ما هو من باب أدب السيرة بما هو من باب

<sup>١</sup>. صوايا، ميخائيل، أحمد فارس الشدياق، حياته - آثاره، دار الشرق الجديد، بيروت، طبعة أوّل، ١٩٦٢، ص ١١.

<sup>٢</sup>. داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة، الجزء الثاني، الفكر العربيّ الحديث في سير أعلامه، الراحلون (١٨٠٠ - ١٩٥٥)، منشورات الجامعة اللبنانيّة، قسم الدراسات الأدبيّة، ٧، بيروت، ١٩٨٣، ص ٤٥٧. وال "خليل" المشار إليه أعلاه هو خليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض ومؤلّف معجم "كتاب العين". والمقصود بهذه الإشارة هو تمكّن الشدياق المميّز من علوم اللغة العربيّة.

<sup>٣</sup>. يكفي أن نشير، في هذا السياق، إلى "اعترافات" القديس أوغسطينوس، و"المنقذ من الضلال" للإمام أبي حامد الغزالي، و"اعترافات" جان-جاك روسو، و"اعترافات في العصر" لألفرد دو موسه.

<sup>٤</sup>. داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة، الجزء الثاني، الفكر العربيّ الحديث في سير أعلامه، الراحلون (١٨٠٠ - ١٩٥٥)، مرجع سابق، ص ٤٥٧.

<sup>٥</sup>. "صقر لبنان" هو عنوان الكتاب الذي وضعه مارون عبّود عن الشدياق، وسنشير إليه في عدد من الحواشي اللاحقة.

<sup>٦</sup>. طرابلسي، فؤاز، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، رياض الرّيس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، تشرين الأول ١٩٩٥، ص ٩.

الأدب الروائي. زدّ على ذلك أنّ الكتاب لا يغطّي من مراحل حياته إلّا الفترة التي تنتهي قريباً من السنة ١٨٥١، تاريخ الفراغ من تأليفه، وأنّ الشدياق لا يربط فيه بين وقائع حياته وبين التواريخ التي حصلت فيها.

#### نسبه

الشدياق سليل بيت عريق، وينتمي بنسبه إلى سلالة "أحد المقدّمين الذين كانت لهم ولاية طويلة على بعض أطراف الشام في القرن السابع عشر (المقدّم خاطر الحصريّ المارونيّ)"<sup>١</sup>. وحول هذه العراقلة في النسب يورد مارون عبّود ما هو أكثر دقّة وتعييناً، فيربطها بالمقدّم "رعد بن خاطر الحصريّ الماروني الذي تولى جبة بشرّي في القرن السابع عشر"<sup>٢</sup>. ويضرب ميخائيل صوايا في الزمن، ونقلًا عن "تاريخ المطران يوسف الدبس"، إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، ويعود بنسب فارس الشدياق "إلى الأمير يوحنا من أمراء المردة وهو أمير الموازنة الذي قُتل في قرية قبّ الياس - البقاع - بمكيدة يوستينيانوس الأخرم بن (ابن) ملك الروم قسطنطين اللحياني"<sup>٣</sup>. أما في نسبه الأقرب إلينا في الزمن فهو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر شقيق بطرس الملقّب بالشدياق<sup>٤</sup>. وكان الشدياق بطرس مدبّرًا للأمير ملحم ابن الأمير حيدر الشهاييّ الذي شارك والده في الحكم عام ١٧٣٠، ثمّ حكم بعده من ١٧٣٢ - ١٧٥٣. ولأسباب ماليّة غضب الأمير عليه، وصادر أملاكه - بعد أنّ قضى منتحرًا - وأملاك منصور ابن شقيقه جعفر في عشقوت، فارتحل الشدياق - المغضوب عليهم - "إلى حارة البطم في حدث بيروت بين سنة ١٧٣٩ وسنة ١٧٤١". والمشروقيّ اسم الأسرة الأصليّ قبل أن يلزمها لقب الشدياق. والشدياق "فهد بن الشدياق شاهين المشروقيّ هو جدّ العائلة الأعلى". أمّا أمّه فهي ابنة "الشيخ يوسف زياده مسعد عمّة البطريك بولس مسعد الشهير". وزواجها من يوسف الشدياق - المولود عام ١٧٦٢ - ١٧٦٣، و"الملقّب بالحاج يوسف لأنّه حجّ غير مرّة إلى بيت المقدس"، والمكّيّ "بيوسف الحسن أو الحسين تحببًا" - هو الثاني لها بعد ترملها من زوجها الأوّل عبّاس أبي حيدر الشدياق وهو "من بيت آخر"، وقد لُقّب "بأمّ حسين" نسبة إلى لقب زوجها<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup>. الأشتر، عبد الكريم، "أحمد فارس الشدياق"، في نصوص مختارة من الأدب العربيّ الحديث، النشر ١، أعلام الرّواد، المكتبة الحديثة، دمشق، ١٩٦٦، ص ١٥٩.

<sup>٢</sup>. عبّود، مارون، صقر لبنان، بحث في النهضة الأدبيّة الحديثة ورجلها الأوّل أحمد فارس الشدياق، دار المكشوف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٥٠، ص ٨٩ - ٩٠.

<sup>٣</sup>. صوايا، ميخائيل، أحمد فارس الشدياق، حياته - آثاره، مرجع سابق، ص ١٧، حاشية ٢. ولا يعيّن صوايا بالضبط ما هو اسم "تاريخ الدبس" الذي ينقل عنه، ولا أرقام الصفحات حيث ورد ذلك. ويبدو أنّه يستقي معلوماته نقلًا عن السيرة التي وضعها بولس مسعد لأحمد فارس الشدياق، وفيها يذكر مسعد، نقلًا عن تاريخ "سفر الأخبار" للدبس، هذه المعلومات (راجع الحاشية رقم ١ على الصفحتين ١٥ - ١٦ من سيرة مسعد). وسنشير إلى هذه السيرة في عدد من الحواشي اللاحقة.

<sup>٤</sup>. "الشدياقية" مرتبة من مراتب المرشّحين لاقتبال سرّ الكهنوت لدى الطائفة المارونيّة، وهي تقع في المرتبة الثالثة بعد مرتبتيّ المرثّل والقارئ، ويليهما مرتبة الشمّاس وهي الأخيرة قبل السيامة الكهنوتيّة. ويرد في محيط المحيط أنّ "الشدياق عند بعض النصارى من ممارس خدمة الكاهن والترتيل معه في أوقات الصلوات. معرّب دياكونوس البولونيّة جمع شدياق" (البيستاني، المعلم بطرس، محيط المحيط، قاموس مطوّل للغة العربيّة، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، طبعة جديدة، ١٩٧٨، إعادة طبع ١٩٩٨، ص ٤٥٦). ثمّ أصبحت "الشدياقية" لقبًا من ألقاب الجاه، يُلقّب بها المتعلّمون والكتّاب. وكان "الشدياقية" يلبسون "الغباز"، ويشكّون الدواة في زناهم تشاؤمًا وتباهيًا.

<sup>٥</sup>. مسعد، بولس، فارس الشدياق، مطبعة الإخاء، مصر، طُبع على نفقة الدكتور فيليب الشدياق، ١٩٣٤، ص ٩ - ١٠. والبطريك بولس مسعد من مواليد العام ١٨٠٦، وتولّى سدة البطريكيّة المارونيّة من العام ١٨٥٤ حتّى وفاته في العام ١٨٨٩. وحول تاريخ زواج الوالد يذكر مسعد أنّه حصل عام ١٧٩٤ (ص ٩)، لكنّه يعود ويعيّن العام ١٧٩١ تاريخًا لولادة ابنه

## مكان ولادته وزمانها

وُلد فارس في حارة البطم في حدث بيروت عام ١٨٠١. وثمة تضارب، في آراء الباحثين، حول ذلك المكان وهذا التاريخ. فيولس مسعد، كاتب سيرته، يحدّد العام ١٨٠٥، وليس العام ١٨٠٤ "كما يزعم بعضهم خطأ"، تاريخاً لمولده، وعشقوت- من قرى كسروان- مكاناً لها<sup>١</sup>. ومارون عبّود يثبت العام ١٨٠٤ زماناً لها، وعشقوت مكاناً، وحدث بيروت مرتعاً لنشأته الباكرا<sup>٢</sup>. ويجاري أسد رستم، في تحديد تاريخ ولادته ومكانها، مارون عبّود<sup>٣</sup>. وكذلك فعل كلٌّ من يوسف أسعد داغر الذي أقرن تاريخ الولادة بعلامة استفهام<sup>٤</sup>، وفواز طرابلسي وعزيز العظمة في مؤلّفهما عن الشدياق<sup>٥</sup>. لكنّ الأخيرين يشيران، في حاشية مقتضبة على الصفحة ذاتها من الكتاب (ص ١٢)، إلى خلاف يدور حول زمان الولادة ومكانها، وينسبان فيها -خطأً- إلى عماد الصلح تحديده العام ١٨٠٥ تاريخاً للولادة. أمّا ميخائيل صوايا فيجزم بأنّ العام ١٨٠٥ هو التاريخ، وبأنّ عشقوت هي المكان<sup>٦</sup>. وبدوره يحدّد عبد الكريم الأشتر العام ١٨٠٥ تاريخاً للولادة<sup>٧</sup>. وكذلك فعل الشيخ نسيب وهيبه الخازن في تقديمه لكتاب "الساق على الساق في ما هو الفاريق"<sup>٨</sup>. وحده عماد الصلح تصدّى لإثبات تاريخ الولادة ومكانها بشكل حاسم، فعينهما على النحو الذي أشرنا إليه سابقاً، وذلك استناداً إلى رسالتين "للشدياق نفسه تفصلان في الأمر وتلقيان ضوءاً جديداً على القضية"<sup>٩</sup>. ونحن نضيف، إلى ما أثبتته الصلح، ما ذكره مارون عبّود- نقلاً عن عدد جريدة "لسان الحال" المعاصرة- من نعي للشدياق أوردته وكالة "هافاس" في برقيّة لها بتاريخ ٢٢ أيلول ١٨٨٧ من أنّه تويّ "عن ٨٨ سنة"<sup>١٠</sup>، وهو ما يستبعد نهائياً أن يكون العام ١٨٠٤ الذي عينه، أو العام ١٨٠٥ الذي عينه الآخرون تاريخاً لها، ويجعل العام ١٨٠١ التاريخ الأصحّ. أضف إلى ذلك ما ذكره الشدياق نفسه، في رسالة له وجهها "قُبيل وفاته بنحو ثلاثة

البكر طئوس (ص ١١). وهذان التاريخان، إن صحّا، فإنّهما يفترضان أن يكون طئوس أحدًا غير شقيق لأحمد فارس، وهذا غير وارد. يبقى أنّ مسعد وقع ضحية تضارب في التواريخ لم ينتبه إليه.

١. مسعد، بولس، فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٦.

٢. عبّود، مارون، صقر لبنان، مرجع سابق، ص ٩٠.

٣. رستم، أسد، "خصائص لغة العرب"، في لبنان في عهد المتصرفيّة، بيروت، دارالنهار للنشر، لا طبعة، ١٩٧٣، ص ٢٧٤.

٤. داغر، يوسف أسعد، "أحمد فارس الشدياق، ١٨٠٤-١٨٨٧"، في مصادر الدراسة الأدبية، الجزء الثاني، الفكر العربي الحديث في سيرة أعلامه، الراحلون (١٨٠٠-١٩٥٥)، مرجع سابق، ص ٤٥٧-٤٥٨.

٥. طرابلسي، فواز، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٢.

٦. صوايا، ميخائيل، أحمد فارس الشدياق، حياته- آثاره، مرجع سابق، ص ١٦، حاشية ١.

٧. الأشتر، عبد الكريم، "أحمد فارس الشدياق"، في نصوص مختارة من الأدب العربي الحديث، النشر، ١، أعلام الرواد، مرجع سابق، ص ١٥٩.

٨. الخازن، نسيب وهيبه، "هذا الكتاب"، في الساق على الساق في ما هو الفاريق، بيروت منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦، ص ٥٩.

٩. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ١٩.

١٠. عبّود، مارون، صقر لبنان، مرجع سابق، ص ٩٩. ويبدو أنّ عبّود لم ينتبه ويدقّق في عمر الشدياق الذي بلغه عند الوفاة، ولو أنّه فعل لأعاد النظر ربّما في تاريخ العام ١٨٠٥ الذي حدّده سابقاً تاريخاً لولادته. زدّ على ذلك أنّ عبّود يذكر، في كتابه ص ٩٠، أنّ الشدياق مات في القسطنطينيّة "ابن ثلاث وثمانين".

أسابيع" إلى ناظر العدليّة في الدولة العثمانيّة يلتمس فيها المساعدة الماليّة، من أنّه بلغ السادسة والثمانين<sup>١</sup>. هذا فضلاً عمّا تكتم وأفضى به إلينا نسيبه الشيخ شارل كميل الشدياق من أنّ ولادة نسيبه الكبير كانت في العام ١٨٠١<sup>٢</sup>.

### الحدث وعشقوت

من الثابت أن والدي فارس اضطرّاً للتنقل بين الحدث وعشقوت. فقد كانا يقيمان أولاً في "حارة الحدث"، لكنّهما انتقلا إلى عشقوت عام ١٨٠٥ بناءً على "إيعاز الأمير حسن عمر شهاب" إلى الوالد يوسف "بالإقامة في كسروان بعد أن عيّنه مديراً لشؤونه (كذا)". وهكذا انتقل يوسف إلى عشقوت بعد شرائه "داري أبيه منصور وعمّه بطرس من بنت الشيخ صليبي الخازن ووالدتها". وهذان الداران كان الأمير ملحم شهاب قد صادرهما "ووهبهما إلى الشيخ أبي صليبي مرعب الخازن" بعد أن غضب على مديّره بطرس الذي عجز عن مدّه بلمال إشباعاً لجشع والي صيدا. فانتقل منصور، جدّ فارس، وابنا عمّه - مكرهين - من عشقوت "إلى حارة البطم في حدّث بيروت بين سنة ١٧٣٩ وسنة ١٧٤١". لكنّ إقامة والدّي فارس لم تطل في عشقوت، فغادراها مع أبنائهما عائدين إلى حارة الحدث عام ١٨٠٩ بعد وفاة الأمير حسن. وفي العام التالي باع الوالد يوسف "داريّة في عشقوت إلى أولاد الأمير يوسف بن الأمير ملحم شهاب (...). ومن ذلك الحين لم يُعد آل الشدياق إلى عشقوت إلّا زائرين أو لقضاء فصل الصيف"<sup>٣</sup>.

### فصول من حياة العائلة

وفارس "هو خامس إخوته وأشهر الشدايقة"<sup>٤</sup>، وإخوته الأربعة الذين يكبرونه هم: طنّوس البكر (١٧٩١ - ١٨٦١) صاحب كتاب "تاريخ الأعيان في جبل لبنان"، ومنصور (١٧٩٥ - ١٨٤١)، وأسعد (١٧٩٨ - ١٨٣٠)، وغالب (١٨٠٠ - ١٨٤٢)<sup>٥</sup>. وأسرتة "متّصلة الأسباب باللغة والأدب والتفقه في الدين والتاريخ"<sup>٦</sup>. وهي كبيرة في تعداد أفرادها، وفي تفرّعاتها، و"ذات وجهة مرموقة"<sup>٧</sup>.

<sup>١</sup>. راجع نصّ هذه الرسالة في كتاب عماد الصلح ص ١٢٦ - ١٢٧.

<sup>٢</sup>. أكّد لنا هذا التاريخ الشيخ شارل كميل الشدياق في لقاء لنا معه جرى عند الساعة الرابعة من مساء الثلاثاء ١٩ كانون الثاني ٢٠١٦، بناء على موعد مسبق، في دارته التي يقيم فيها في حارة البطم في حدّث بيروت، وهي نفسها الدارة الأصليّة لنسيبه الكبير أحمد فارس الشدياق، حيث وُلِد وترعرع، وشهد الكثير من فواجع طفولته وشبابه الباكر.

<sup>٣</sup>. مسعد، بولس، فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٠، ١٦. ويبدو أنّ مسعد يستقي معلوماته هذه عن كتاب طنّوس الشدياق "أخبار الأعيان في جبل لبنان" المطبوع سنة ١٨٥٩. يُراجع أيضاً ما كتبه الشيخ نسيب وهيبه الخازن في تقديمه كتاب الساق على الساق في ما هو الفارياق (ص ٥٣ - ٥٤) نقلاً عن كتاب "تاريخ الأعيان في جبل لبنان" للشيخ طنّوس الشدياق شقيق فارس.

<sup>٤</sup>. داغر، يوسف أسعد، "أحمد فارس الشدياق، ١٨٠٤؟ - ١٨٨٧"، في مصادر الدراسة الأدبيّة، الجزء الثاني، الفكر العربيّ الحديث في سبّير أعلامه، الراحلون (١٨٠٠ - ١٩٥٥)، مرجع سابق، ص ٤٥٨.

<sup>٥</sup>. وقد أعطى بولس مسعد سيرة مقتضبة عن كلّ من هؤلاء الإخوة على الصفحات ١١ - ١٥ من مؤلّفه فارس الشدياق. وللشيخ طنّوس مؤلّفات أخرى لا تزال مخطوطة، منها تلخيص كتاب "تاريخ الأزمنة" للبطريك اسطفان الدويهي، وقد أمّته عام ١٨٤٨. وقد تفضّل نسيبه الشيخ شارل كميل الشدياق وأطلعنا على نسخته المحفوظة لديه خلال اللقاء الذي أشرنا إليه في حاشية سابقة، وهي في حالة سليمة جدّاً، ويحظّ المؤلّف الذي هو في غاية الجمال والإنتقان. أما شقيقه أسعد فسنفرد له فقرة خاصّة في المكان المناسب من هذه السيرة.

<sup>٦</sup>. الأشر، عبد الكريم، "أحمد فارس الشدياق"، في نصوص مختارة من الأدب العربيّ الحديث، النشر، ١، أعلام الروّاد، مرجع سابق، ص ١٥٩.

<sup>٧</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ١٧.

ويقول هو عن والديه أنّهما "كانا من ذوي الوجاهة والنباهة والصلاح"<sup>١</sup>. إلا أنّ كوارث مفعجة حلّت بالعائلة قُيّيل ولادة فارس، ويبدو أنّه كان مقدراً لها أن تستمرّ حتى مرحلة شبابه. وهذا ما دفعه كي يقول في تاريخ مولده: "كان مولد الفاريق في طالع نحس النحوس والعقرب شائلة بذنبها إلى الجدي أو التيس، والسرطان ماشٍ على قرن الثور"<sup>٢</sup>.

كان والده يوسف "مدبّرًا لأبناء الأمير يوسف الشهابيّ ولسواهم من الأمراء المتنازعين في الولاية على لبنان"<sup>٣</sup> من خصوم الأمير بشير الثاني الشهابيّ. وعداوة أسرة الشدياق مع الأمير بشير قديمة ومعروفة، وتعود بجذورها إلى اليوم الذي خلعه والي عكا أحمد باشا الجزائر عن الإمارة لعدم تقديمه العون له عند حصار بونابرت لعكا. وكان أن انحاز الشدايقة إلى "الأميرين حسن عليّ وسلمان سيّد أحمد، من أبناء عمومة الأمير بشير". لكنّه ما لبث أن عاد إلى تولّي الإمارة بعدما استرضى الجزائر، ولم يغتفر لهم موقفهم، ممّا دفعهم للبقاء على خصامهم معه حتى نهاية حكمه<sup>٤</sup>.

وعن فصول العداوة والصراع هذه، يروي "الفاريق" أنّ والده انحاز إلى أعداء الأمير بشير وحاول خلعه معهم، لكنّهم فشلوا وفروا إلى دمشق يطلبون النجدة من واليها. وفي "الليلة التي فوّوا فيها هجمت جنود الأمير على وطن الفاريق ففرّ مع أمّه إلى دار حصينة بالقرب منها لبعض الأمراء"، وأعمل المهاجمون نهباً في البيت "ومن جملة ذلك طنبور كان يعزف به أوقات الفراغ"<sup>٥</sup>.

## تعليمه

ابتدأ فارس تعليمه عند معلّم بلدته الحدث الذي كان "مثل سائر معلّمي الصبيان" في ذلك الزمان. فهو لم يقرأ، طوال حياته، إلاّ كتاب "الزبور"، وهو الكتاب الذي كان يتعلّم فيه الأولاد من غير أن يفقهوا شيئاً من معانيه. ولما "ختم الكتاب المذكور"<sup>٦</sup>، اختتم الشدياق تعليمه النظامي، إذا صحّ التعبير، وراح يشتغل بنسخ الكتب في المنزل، بناء على إشارة المعلّم للوالد. وسيستبقي له، في فترات متفاوتة من مرحلة شبابه الباكر اللاحقة، أن يستفيد من خزانة كتب والده القيّمة، وأن يتعلّم على إخوته، لاسيّما على يدي شقيقه

<sup>١</sup>. الشدياق، أحمد فارس، الساق على الساق في ما هو الفاريق، قدّم له وعلّق عليه الشيخ نسيب وهيبه الخازن، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦، ص ٨٣.

<sup>٢</sup>. المرجع نفسه، ص نفسها.

<sup>٣</sup>. صوايا، ميخائيل، أحمد فارس الشدياق، حياته - آثاره، مرجع سابق، ص ١٧، حاشية ١. وحول المزيد من علائق يوسف الشدياق، والد أحمد فارس، بالأمراء الشهابيين والأدوار التي اضطلع بها في معاونتهم، يُراجع: مسعد، بولس، فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٠ - ١١. وقد استمرّ أبناء يوسف، طنوس ومنصور وأسعد وغالب، في العمل لدى الأمراء الشهابيين. وللمزيد، حول هذه الناحية، تُراجع الصفحات ١١ - ١٥ من كتاب مسعد.

<sup>٤</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ١٧.

<sup>٥</sup>. الشدياق، أحمد فارس، الساق على الساق في ما هو الفاريق، مرجع سابق، ص ٩٧. فرّ الوالد "يوسف إلى دمشق ومعه أبناؤه طنوس ومنصور وغالب. أما أسعد فاختماً في الحدث ثمّ فرّ إلى قنوبين"، ومنها توجه إلى طرابلس بعدما طرده البطريرك حتّى الحلو منها، وأخيراً التحق بأبيه وإخوته في دمشق. "وكان رجال الأمير بشير في تلك المعركة بقيادة الأمير حيدر أحمد شهاب، صاحب التاريخ المعروف: الغرر الحسان" (الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٢٠). والعنوان الكامل لتاريخ الأمير حيدر هو: "الغرر الحسان في أخبار أهل الزمان"، وعند هذا الأمير سيعمل صاحب سيرتنا لفترة في عمل النساخة. ويذكر نسيب وهيبه الخازن في مقدّمته (ص ٥٥) أنّ هذا الهجوم على منزل الحدث حصل عام ١٨١٣، ويحدّد سبب حصوله والأمكنة التي فرّ إليها أفراد العائلة على نحو مغاير لما أوردناه أعلاه.

<sup>٦</sup>. مرجع نفسه، ص ٨٤.

أسعد الذي مارس النسخة لدى عدد من الأعيان، وتولّى تعليم اللغة العربيّة والصرف والنحو لأبناء بعض الأمراء، ممّا سيأتي بيانه في مراحل لاحقة من هذه السيرة. وبقي يعمل في النسخ "مدّة طويلة" على الرغم من أنّه "لم يكن قرير العين بهذه الحرفة"، إلاّ أنّها أتاحت له تجويد خطّه، وحفظ بعض الألفاظ<sup>١</sup>.

### مدرسة عين وَرْقَة

ذكر الكثيرون، ممّن تناولوا سيرة الشدياق، أنّه تتلمذ في مدرسة عين وَرْقَة. نذكر منهم بولس مسعد (ص ١٧)، ومارون عبّود (ص ٩٠)، وعبد الكريم الأشتر (ص ١٥٩)، وميخائيل صوايا (ص ١٧)، ويوسف أسعد داغر (ص ٤٥٨ - ٤٥٩)، وكمال الصليبي في كتابه "تاريخ لبنان الحديث"<sup>٢</sup>، وفؤاز طرابلسي وعزيز العظمة (ص ١٣)، والأب كميل حشيمه (ص ٦٥٧)، وسواهم. لكنّ عماد الصلح يشكّك في ذلك، مرجّحاً بأنّه لم يحدث. ونحن نميل، بدورنا، إلى ترجيح رأيه، ونوافقه على التعليل الذي يقدّمه، وفحواه أنّ الشدياق أغفل ذكر الأمر في "فاريقه"، تصرّيحاً وتلميحاً، على الرغم ممّا كان "لهذه المدرسة من مقام خاصّ لديه"، ووصّفه إياها بأنّها "قدوة في تعليم اللغة العربيّة". ويعزو الصلح خطأهم إلى التباس أوقعهم فيه الخلط - ربّما - "بين فارس وشقيقَيْه غالب وأسعد اللذين التحقا بتلك المدرسة، وكان أسعد من تلامذة البطريك حبيش نفسه عندما كان يعلّم فيها"<sup>٣</sup>.

### النسخة وأعمال أخرى

في العام ١٨٢٠ توفّي الوالد في دمشق، بعد أن اشتدّ عليه داء الربو، و"ورد عليه نعيه"، واستمرّ هو مقيماً مع والدته، مستمراً في تعاطي النسخة في البيت<sup>٤</sup>. ولم يزل مكبّاً على عمله هذا حتّى ذاعت براعته فيه، فأرسل الأمير حيدر أحمد شهاب - صاحب كتاب "الغرر الحسان في أخبار أهل الزمان" - يستدعيه لينسخ له ما كان يجمعه من وثائق وموادّ تمهيداً لوضع كتابه المذكور. والأمير حيدر هذا هو الذي قاد الجماعة التي أغارت على منزل العائلة في الحدث فخرّته بعدما نهبت محتوياته. ولذلك كان فارس يبغضه بغضاً

<sup>١</sup>. مرجع نفسه، ص ٨٦.

<sup>٢</sup>. الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٩١ (الطبعة الأولى ١٩٦٧)، ص ١٨٩.

<sup>٣</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٢٣٢-٢٣٣، حاشية ٢٢.

<sup>٤</sup>. مرجع نفسه، ص ٩٩. واعتمدنا العام ١٨٢٠ تاريخاً لوفاة الوالد، وهو الصحيح، نقلاً عن: مسعد، بولس، فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٧. وما دفعنا إلى اعتماده هو ما ذكره مسعد على ص ١١ من أنّ الوالد توفّي عن ٥٨ سنة. وتجدد الإشارة إلى أنّ مسعد يُورد، ص ٩، تاريخاً آخر هو ١٨٢١ حيث يرد تحديد تاريخ ولادة الوالد ووفاته على النحو التالي: ١٧٦٢ - ١٨٢١. وتاريخ العام ١٨٢١ هو عينه الذي اعتمده صوايا في كتابه، ص ١٩. أمّا فؤاز طرابلسي وعزيز العظمة فيجعلان، في كتابهما عن الشدياق (ص ١٣)، العام ١٨٣٠، وهو غير صحيح، تاريخاً لوفاة الوالد. أمّا الشدياق نفسه فلا يحدّد تاريخاً لجميع ما ذكره من وقائع حياته في "الفاريق".

شديدًا، لكنّه اضطرّ لقبول العمل لديه تحت وطأة الحاجة إلى المال. ووجد ناسخنا، بعد مدّة، أنّ العمل لدى الأمير لم يخفّف من حاجته لأنّه شحيح مقترّ، فتركه<sup>١</sup> ورجع إلى المنزل.

بعد عودة فارس إلى المنزل، قصد شقيقه أسعد الذي كان يعمل "كاتبًا عند بعض أعيان الدروز". وإذ رأى "ما كان عليه القوم من الخشونة والتقصّف ومن الأحوال المغايرة لطباعه"، قفل عائداً إلى بلده، معاهدًا نفسه "أن لا يعقد ناصيته بذنب أحد من كبراء الناس"<sup>٢</sup>، عازمًا القيام بعمل آخر يخرجّه من فاقته.

والعمل الذي اعترّم ممارسته، بمعاونة صديق له بعدما اتفقا معًا، هو ترويح بضاعة يستبضعانها "في بعض البلاد". وبعد أن "اكتريا حمارًا لحمل البضاعة"، وجالا في عدة قرى<sup>٣</sup>، تبيّن لهما سوء خيارهما، فتخلّيا عنه، وعمدا إلى استئجار خان على إحدى الطرقات. لكنّه لم يستطع أن يتابع في عمله الجديد، لمعارضة جدّه الشديدة له، فتخلّى عنه كذلك ورجع إلى بيته وإلى حرفة النساخة موفّيًا "أنّ شقّ القلم أوسع من حقائب البياعة، وأن سواد المداد أهبى من ألوان البضاعة"<sup>٤</sup>. في هذه المرحلة من حياته، تسوّى له أيضًا أن يعلم "بعض أبناء الأمراء وبناتهم"<sup>٥</sup>. ويبدو أنّه شغف بواحدة منهم من أهل جبرته، وكانت جميلة، فراح يغضّ الطرف عن أخطائها، "فتأخّرت هي في العلم وتقدّم هو في الهوس"<sup>٦</sup> بما. وما هي فترة، بعد هذا، حتّى عاد أخوه أسعد إلى حارة البطم في الحدث، وشرع في تعليم أميرين النحو، وما كان من فارس إلّا أن انضمّ إليهما ما أتاح له التمكن من العربيّة أكثر فأكثر<sup>٧</sup>. ومع عودة أسعد إلى الحدث، بدأت ترتسم ملامح مرحلة جديدة سيكون لها أبعاد الأثر في حياة العائلة، وستغيّر مسار حياة مُترجمنا تغييرًا جذريًا.

### قضية أسعد الشدياق (١٧٩٨ - ١٨٣٠)<sup>٨</sup>

أسعد الشدياق هو ثالث أبناء يوسف الشدياق. والحادثة التي أودت بحياته من أخطر ما تعرّضت له العائلة، لاسيّما منها فارس موضوع ترجمتنا. وهي لم تترك أثرها البليغ في مسار العائلة فقط، بل تجاوزته إلى أبعد من ذلك بكثير، وتردّدت أصداءها لدى "جيل

<sup>١</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٢١-٢٢. وفي كتاب "الفاريق"، ص ١٠١-١٠٦، وصف مسهب وساخر للأمير حيدر، وأمثلة عمّا كان يدوّنه له، وكيف ترك العمل لديه.

<sup>٢</sup>. الشدياق، أحمد فارس، الساق على الساق في ما هو الفاريق، مرجع سابق، ص ١٠٧، ١٠٩.

<sup>٣</sup>. يستقي مارون عبّود عددًا من هذه القرى وهي: بسوس وبشامون وعين عنوب، وجميعها اليوم من بلدات قضاء عاليه في محافظة جبل لبنان: عبّود، مارون، صقر لبنان، مرجع سابق، ص ٩٧.

<sup>٤</sup>. الشدياق، أحمد فارس، الساق على الساق في ما هو الفاريق، مرجع سابق، ص ١١٠-١١٣، ١٢٣.

<sup>٥</sup>. صوايا، ميخائيل، أحمد فارس الشدياق، حياته - آثاره، مرجع سابق، ص ٢٠.

<sup>٦</sup>. الشدياق، أحمد فارس، الساق على الساق في ما هو الفاريق، مرجع سابق، ص ١٢٥.

<sup>٧</sup>. مرجع نفسه، ص ١٢٩.

<sup>٨</sup>. حول وقائع قضية شقيقه أسعد، يُراجع ما كتبه أخاه فارس في الجزء الثالث من الفصل ١٩ من الكتاب الأوّل من الساق على الساق في ما هو الفاريق، وعنوانه: "عرض كاتب الحروف"، ص ١٨٧-١٩٤. وحول تاريخ الوفاة المحدّد أعلاه، يُراجع ما سيرد في الصفحة اللاحقة.

كامل من المثقفين اللبنانيين"، بدءًا من خليل مشّاقه (١٨٠٠ - ١٨٨٨)، والمعلم بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣)، وسواهما، وصولًا إلى جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) الذي يرى خليل حاوي "حضورًا لها" في أدبه. وفضلاً عن ذلك فقد "تضافر في حملة الكنيسة المارونيّة ضدّ الإنجيليّين العاملان السياسيّ واللاهوتيّ"، كما أنّها جاءت في سياق امتداد الصراع بين الفرنسيّين والبريطانيّين في هذه الديار، ومعبرة "عن اتجاه التشدّد الذي غلب في الكنيسة الكاثوليكيّة في روما" بعد سيطرة اليسوعيّين مجدّدًا على "البروباغندا"، وتصديهم لمقاومة "الأثار الفكرية للثورة الفرنسيّة والإصلاح البروتستانتيّ على جمهور المؤمنين عبر العالم".<sup>١</sup>

لقد تصدّى عدد كبير من الباحثين لتناول هذه القضية، فكتبت "مأساته وطُبعت أوّلًا في مالطة سنة ١٨٣٣ في كراس اسمه "خبريّة أسعد الشدياق"، ثمّ أعاد كتابتها وتوسّع في وقائعها المعلم بطرس البستاني في كتاب اسمه "قصّة أسعد الشدياق" الذي طُبِع، للمرّة الأولى، سنة ١٨٦٠، وأعيدت طباعته سنة ١٨٧٨.<sup>٢</sup> وكتب عنها بولس مسعد في كتابه "فارس الشدياق" (ص ١٢ - ١٤) المطبوع في مصر عام ١٩٣٤؛ وعماد الصلح في "أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره" (ص ٢٢ - ٢٦)؛ وطرابلسي والعظمة في "أحمد فارس الشدياق" (ص ١٣ - ١٧)، وغيرهم. وعلى الرغم من أنّ الكثير من جوانبها لا يزال غامضًا، فإننا سنتطرق إليها بإيجاز شديد محيلين القارئ، لمزيد من التفاصيل، إلى ما كتبه الباحثون الذين ذكرناهم.

فحوى القصّة أنّ أسعد تحوّل، في العام ١٨٢٥، من الطائفة المارونيّة إلى المذهب الإنجيلي.<sup>٣</sup> ولما وضع المطران بطرس كرم، رئيس أساقفة بيروت للموارنة، كتابًا فنّد فيه مزاعم البروتستانتيّين، انبرى أسعد، وكان كاتبًا في ديوانه، للردّ عليه، ممّا أثار عليه حفيظة الإكليروس المارونيّ، لاسيّما البطريرك يوسف حبيش، بطريك الطائفة آنذاك، فاستدعاه في آذار عام ١٨٢٦ "ليمثل أمامه واحتجّه في دير علما على ساحل كسروان". غير أنّ أسعد استطاع الهرب إلى بيروت، ودوّن ما حصل له في رسالة إلى المرسل الأميركيّ إسحق بيرد. غير أنّ أهله عادوا وأسلموه إلى السطة الكنسيّة، فسُجن في دير قنوبين، المقرّ البطريركيّ السابق، في ظروف شديدة القسوة تسببت بوفاته التي لم تتأكد "إلا في صيف العام ١٨٣٢ عندما سُمح للتاجر البريطانيّ ريتشارد تود أن يدخل الدير ويتحقّق منها بنفسه". وكان "تود" قد تمكّن من مقابلة إبراهيم باشا المصريّ في عكا، وحصل منه على توصية إلى الأمير بشير الشهابيّ الثاني للمساعدة. وعندما أراد التوجّه إلى قنوبين لمقابلة البطريرك، والبحث عن أسعد في الدير، وضع الأمير بتصرفه ستة من جنوده، وزوّده

١. طرابلسي، فوز، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٤. ولقد تناول الكاتبان قصّة أسعد على الصفحات ١٣ - ١٧ من كتابهما.

٢. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٢٢. ويضيف الصلح، في الحاشية ٢٣ ص ٢٣٣، موضحًا مضمون القصّة: "نقسم القصّة إلى ثلاثة أقسام أو فصول. الأوّل والأخير كتبهما المعلم بطرس البستاني. أمّا الأوسط فينسب إلى فارس أحيانًا وإلى أسعد أحيانًا أخرى، وهذا القسم، أي الأوسط، طُبِع على حدة سنة ١٨٣٣ في مالطة باسم "خبريّة أسعد الشدياق الذي اضطرّ لأجل إقراره في الحقّ"، وهو في رأينا ليس لفارس وليس لأسعد، إذ يغلب عليه ضعف الأسلوب الذي اشتهرت به مطبوعات المرسلين وكتاباتهم، ولذلك لا يصحّ نسبته إلى أسعد فضلًا عن فارس، بل أغلب الظنّ أنّ كاتبه اسحاق برد، وربما كان برد قد استعان بأسعد لتدكّر بعض الأحداث، وعلى كلّ حال فالأقسام الثلاثة تتّم بعضها بعضًا. وهي تروي قصّة أسعد، والأحداث التي وقعت له بسبب انتقاله من المذهب المارونيّ إلى المذهب الإنجيليّ".

٣. الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث، مرجع سابق، ص ٩٠.

٤. عبّود، مارون، صقر لبنان، مرجع سابق، ص ٣٩.

بأمر خطيّ تسهياً لمهمّته. ولدى وصوله، وجد البطريك في انتظاره، وأكّد له (البطريك) أنّ الوفاة حصلت قبل عامين. لكنّ "تود" أصرّ "أن يتحرى الأمر بنفسه، ففوّض "الكاهن بولس مسعد، ابن خال أسعد، ليريه تحييس السجن وقبره". فرافقه الأخير، وأكّد له أنّ داء الاستسقاء هو الذي سبّب الوفاة<sup>١</sup>.

لم يُمكن أن يُعرف، على وجه التعيين، متى حصلت الوفاة. يمكن فقط تقدير زمنها على نحو تقريبيّ. فإذا سلّمنا مع المعلّم بطرس البستاني أنّ البطريك طلبه أوائل العام ١٨٢٦، وسلّمنا مع أخيه فارس أن فترة سجنه استغرقت ستة أعوام، اقتضى أن يكون حصولها عام ١٨٣٢. لكننا إذا أخذنا في الاعتبار ما قاله البطريك حبيش للتاجر تود الذي جاء يبحث عنه من أنّها حصلت قبل عامين<sup>٢</sup>، فإنّ ذلك يفضي بنا إلى العام ١٨٣٠. أمّا كمال الصليبي فإنّه يحدّد تاريخاً ثالثاً هو العام ١٨٢٩ من غير إشارة إلى المصدر الذي يأخذ عنه<sup>٣</sup>. وقد يكون الفصل في الأمر، بشكل قاطع، متعذراً.

### بين مصر ومالطا

من المؤكّد أنّ فارس مال إلى المذهب البروتستانتيّ، بتأثير من شقيقه أسعد، قبل أن يُلقى القبض على الأخير، ويحصل له ما حصل. فلقد كان له تأثير شديد عليه، وفارس يحبّه وينظر إليه على أنّه قدوة، فاستماله إليه بأساليب الإقناع، ورغبه بقراءة عدد من الكتب الدينيّة البروتستانتيّة، فاطّلع عليها وراقت لعينه. وتزايدت عليه الضغوط، بعد ذلك، من أفراد عائلته ومن مطران بيروت ليتخلّى عن ميله هذا، ولم يستجب. وعندما أُلقي القبض على أخيه مطلع العام ١٨٢٦، استشعر المرسلون، كما أفراد عائلته، الخطر على حياته، فقرّروا إنقاذه عبر إيفاده إلى مالطا. وقد حصل ذلك "في نيسان سنة ١٨٢٦ وليس سنة ١٨٢٥ كما يقول طنّوس [الشدياق، شقيقه] خطأً في كتابه تاريخ الأعيان ص ١٩٨"<sup>٤</sup>.

قد لا يكون ميل فارس إلى البروتستانتيّة، وما تعرّض له شقيقه أسعد، السبب الأوحد في هجرة فارس. فقد كان هو نفسه يفكر، وقتئذ، "في مغادرة لبنان إلى الخارج جاداً في طلب الرزق والعلّا [والعلّي]"<sup>٥</sup>. أضف إلى ذلك أنّ "بني الشدياق كانوا في جملة الذين تأمروا على الأمير بشير الكبير" الذي تمكّن من التغلّب عليهم "في حادثة المختارة الشهيرة، وخشي هؤلاء انتقامه وفارس يومئذ شاب تطمّح نفسه إلى المجازفة والجهاد في مطارح الغربية فوافقوه على الرحيل إنقاذاً له من شرّ الأمير"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup>. طرابلسي، فوز، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٤-١٥.

<sup>٢</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٢٥. يُراجع أيضاً: طرابلسي، فوز، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٥-١٦.

<sup>٣</sup>. الصليبي، كمال، تاريخ لبنان الحديث، مرجع سابق، ص ١٧٢.

<sup>٤</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٢٣، وص ٢٣٣ حاشية رقم ٣١.

<sup>٥</sup>. مسعد، بولس، فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٧، حاشية رقم ١.

غادر فارس إلى مدينة الإسكندرية، أولاً، على متن سفينة صغيرة تعرّضت لعاصفة بحريّة بعد فترة من إبحارها. وأوّل وصوله إلى المدينة وجّه "عرض حال للسّدة الأميريّة. والحضرة الملكيّة. بطريك الطائفة المارونيّة"<sup>١</sup>. والفترة التي أمضاها في مصر "قد لا تكون تجاوزت الشهر أو الشهرين" انتظر خلالها سفينة أخرى تقلّه إلى مالطا، أو المراسلة التي كان يُفترض أن تتمّ بين "القسيس [البروتستانتي] في مصر واسحاق بيرد (المبشر في بيروت)". وتحدّر الإشارة إلى أنّ هذا الأخير كان يرغب في تخريجه "على أيدي المبشرين في مالطة [كذا] مرسلاً ومبشراً"، وهكذا حصل. لكنّ داء المفاصل الذي أصابه، وهو في الجزيرة، ألزم "الخُرُجيين"<sup>٢</sup> القيمين عليه في الجزيرة إعادته إلى مصر، بعد أن استغرقت إقامته في الجزيرة سنة وبعض السنة<sup>٣</sup>.

بقي فارس في مصر يعمل مع المبشرين، فعلمهم العربيّة، وتعلّم هو أيضاً "الفقه وعلم الكلام والمنطق على مشايخ الأزهر وعلى علماء وأدباء من أمثال نصرالله الطرابلسي (١٧٧٠ - ١٨٥٠) وشهاب الدين محمد بن اسماعيل المالكي (١٨٠٣ - ١٨٥٧) وغيرهما"<sup>٤</sup>. لكنّه كان يسعى وراء عمل جديد يمكنه من "التملّص" منهم. وقد تسمّى له ذلك بتوسّط رجل "من أهل الوجاهة والأدب" فتح أمامه باب الوصول إلى جريدة "الوقائع المصريّة". والعمل الذي تولّاه فيها هو ترجمة ما تنشره باللغة التركيّة إلى العربيّة، وتصحيح ما يُكتب فيها بالعربيّة أصلاً. ويجزم الصلح، على خلاف ما يراه العديد من الباحثين، أنّ الشدياق لم يتبوأ مركزاً مرموقاً في "الوقائع"، ولم يترك فيها أثراً ذا شأن. إلّا أن عمله فيها أثر عميقاً في توجيهه نحو العمل الصحافيّ الذي سيمارسه بعد نحو ربع قرن من هذا التاريخ عندما أسّس جريدة "الجوائب"<sup>٥</sup>.

ترك الشدياق العمل في "الوقائع" بين أواخر ١٨٣٤ وأوائل ١٨٣٥، وتولّى التعليم في مدرسة "تابعة لمؤسّسة من الكنيسة الإنكليزيّة على الأغلب"، واتخذ من تلك المدرسة مكان سكن له. "وكانت هذه المدرسة محاذية لدار أحد التجّار الشوام" من آل الصولي. فتعرّف على وردة ابنة هذه العائلة، وكانت "سوقيّة" أي كاثوليكيّة وهو "خُرُجي" أي بروتستانتيّ. وإزاء ممانعة أهل الفتاة في زواجهما لهذا السبب، وجد نفسه مُلزماً على "التسوّق" أي التكتلك ليوم واحد هو يوم الزواج. وقبيل زواجه كانت قد طلبته البعثة التبشيريّة في

<sup>١</sup> يُراجع نصّ هذه الرسالة في "الساق على الساق في ما هو الفاريق، مرجع سابق، ص ١٨٧ - ١٩٤.

<sup>٢</sup> "الخُرُجيون" هي التسمية التي أطلقها الشدياق على البروتستانتين، مأخوذة من "الخُرُج" وهو "وعاء من شعر أو جلد (أو خيش) ذو عدلين يوضع على ظهر الدابة لوضع الأمتعة فيه" (البستاني، المعلم بطرس، محيط المحيط، مرجع سابق، ص ٣٢٣). والشدياق يشير، بهذه التسمية، إلى الكيس الذي كان المبشر يحمله على ظهره، واضعاً فيه حاجياته القليلة، ومرتبلاً من مكان إلى آخر. أمّا "السوقيون" فهي التسمية التي أطلقها على الكاثوليكين وقد أخذها من "السوق"، وهو مكان ثابت فيه ذكاكين عديدة يروّج فيها أصحابها بضائعهم. ولا يخفى ما في هاتين التسميتين من سخريّة اشتهر بها الشدياق. وللشدياق، في "فاريقه" ص ١٩٥ - ١٩٨، فصل عنونه: "في الفرق بين السوقيين والخُرُجيين".

<sup>٣</sup> الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٢٧ - ٢٨. ونظراً للتضارب الكبير في المعلومات حول سيرة الشدياق في هذه المرحلة، ولما وجدناه من استيفاء وتدقيق ومناقشة الكثير من الآراء وغربلتها في ما كتبه عماد الصلح عنها، استقرّ رأينا على اعتماد ما جاء لديه.

<sup>٤</sup> طرابلسي، فؤاز، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق ص ١٧. و"نصرالله الطرابلسي من كاثوليك حلب هاجر إلى مصر سنة ١٨٢٨، والتحق بنجيب البحريّ فصار من كتاب ديوانه، ثمّ أدخله في خدمة محمّد علي" (الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٢٣٤ حاشية رقم ٤٥).

<sup>٥</sup> الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٣٠ - ٣١.

مالطا ليقوم بترجمة بعض الكتب الدينية المعتمّدة من قِبَل المبشّرين إلى العربيّة. وهكذا غادر الشدياق مصر تصحبه زوجته، وها هو في مالطا للمرّة الثانية<sup>١</sup>.

في أيّ سنة عاد مع زوجته إلى مالطا؟ هذا ما لا نعلمه على وجه الدقّة والتعيين. فعبد الكريم الأشر (ص ١٦٠)، ويوسف أسعد داغر (ص ٤٥٩) يحدّدان العام ١٨٣٤، وكذا فعل محقّقون آخرون. والواقع أنّه كان لا يزال في مصر في هذا العام. ففي نهايات ١٨٣٤ وبدايات ١٨٣٥ ترك العمل في "الوقائع المصريّة"، وعمل في التدريس في مدرسة المرسلين، وخلال عمله هذا تعرّف بابنة الصولي التي تزوّجها إثر ذلك، على ما مرّ معنا في فقرات سابقة. وعليه يكون تاريخ عودته إلى الجزيرة "في نحو سنة ١٨٣٥"<sup>٢</sup>.

ومهما يكن من أمر تاريخ تلك العودة، فإنّ الشدياق قد شرع "بالعمل الموكول إليه"، ولعلّه بدأ بترجمة "كتاب الصلوات العامّة على موجب استعمال الكنيسة الإيرلنديّة مع مزامير داود"، وأتمّ ترجمته وطُبعت في فاليّتا- عاصمة مالطا- عام ١٨٤٠<sup>٣</sup>. وفي هذه الجزيرة توزّعت أعماله على مجالات أخرى منها، غير ترجمة الكتب الدينية المعتمّدة من قِبَل المبشّرين، تصحيح المطبوعات التي تصدر عن مطبعتهم، والتعليم. وهكذا توزّع عمله "بين المطبعة والتعليم في مدرسة الحكومة". وقبل مباشرة التعليم توجّب عليه المباشرة بوضع الكتب. وأوّل ما كانت تدعو الحاجة إلى وضعه هو كتب القواعد. فبادر إلى تلخيص كتاب "بحث المطالب" للمطران جرمانوس فرحات في قواعد العربيّة. "ثمّ وضع كتاب "الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنكليزيّة" وهو أوّل كتاب من تأليفه". بعد ذلك صحّح "الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار" وهو كتاب في الجغرافيا للمبتدئين. هذه الكتب الثلاثة طُبعت في مالطا عام ١٨٣٦<sup>٤</sup>.

لقد كانت فترة الإقامة في مالطا فترة خصبة جدًّا أتاحت له المباشرة بنشاطه التآليفيّ. وها هو يضع، عام ١٨٣٩، "اللفيف في كلّ معنى ظريف" أوّل كتبه في قواعد العربيّة ليحلّ محلّ كتاب "بحث المطالب"، ويصدره للمرّة الأولى في الجزيرة. وأبعده، عام ١٨٤٠، بكتاب مكملّ لكتاب "الباكورة الشهية" وهو "المحاورة الأنسيّة في اللغتين الإنكليزيّة والعربيّة". أضف إلى ذلك ترجمته كتاب "شرح طبائع الحيوان"، ومن المرجّح أن يكون هذا الكتاب مخصّصًا لتلامذة المرحلة الابتدائيّة. وفي هذه الفترة أيضًا نظم ترانيم للمرسلين "لثتلى في الكنائس البروتستانتيّة جمعت في كراس اسمه "صليب المسيح"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٣٨-٣٩.

<sup>٢</sup>. مرجع نفسه، ص ٤٢.

<sup>٣</sup>. مرجع نفسه، ص ٤٠.

<sup>٤</sup>. مرجع نفسه، ص ٤٠-٤١.

<sup>٥</sup>. مرجع نفسه، ص ٤١. ويشير الصلح، في الحاشية ٥٨ على الصفحة ٢٣٤ من كتابه أنّه عثر على نسخة من هذا الكراس في مكتبة المتحف البريطانيّ رقمها 1010-14505 "خالية من اسم المطبعة وتاريخ الطبع"، وفيها "١٣ ترنيمة مجموع أبياتها ٢٣٩ بيتًا. وليس لهذا الكراس جلد (خارجي) ولذلك ضاع الاسم واتخذ عنوان الترنيمة الأولى "صليب المسيح" اسمًا له.

نتقل إلى مسألة أخرى في هذه المرحلة "المالطية" من حياة الشدياق لِتُلَمَّعَ إليها سريعًا معتمدين ما أورده الصلح بهذا الصدد. إنّها مسألة توضيح أمر المطبعة في مالطا "التي عمل فيها. فهناك اعتقاد عند بعض المحقّقين" أنّها المطبعة الأميركيّة التي نقلها المرسلون إلى بيروت عام ١٨٣٤. لكنّها في الواقع "المطبعة التي هي لمجمع الإنكليز". والشدياق نفسه قد ذكر ذلك في رسالة إلى شقيقه طّوس تحمل تاريخ ٥ نيسان ١٨٣٩<sup>١</sup>.

قطع الشدياق إقامته في مالطا في مناسبتين. في الأولى منهما قام بزيارة لبنان برفقة رئيس المطبعة، وذلك إبان الثورة على إبراهيم باشا (١٨٤٠). وقد تسوّى له أن يمضي بعض الوقت في بيروت، وفي الحدث. ولما هدأت الأحوال زار ورفاقه في السفر بعلبك، ثمّ دمشق، ومنها عادوا إلى بيروت. وأخيرًا أبحروا، في طريق العودة، إلى يافا والإسكندريّة بلوغًا إلى مالطا. وقد وصف، في ملاحظتين موجزتين له، رؤيته لبعض الأهالي المسلّحين وهو في الطريق إلى الحازميّة، وعودة الأمن إلى الجبل<sup>٢</sup>. وفي المناسبة الثانية زار تونس للمرّة الأولى صيف العام ١٨٤١ خلال العطلة المدرسيّة، ونظّم قصيدة مدح في واليها أحمد باشا، وأرسلها إليه، فنالت استحسانه، وأهداه "علبة نشوق مرضعة بالألماس ومعها كتاب من مصطفى باشا خازندار الدولة التونسيّة"<sup>٣</sup>. أُقيل الشدياق من عمله في مطبعة المجمع الإنكليزيّ عام ١٨٤٣، بين ١٧ أيار و ١٣ تمّوز منه. واضطرّ إلى إرسال عائلته إلى مصر. ولقد أوضح عماد الصلح، بشكل مفصّل، سبب هذه الإقالة مرجعًا إيّاه إلى اختلاف "على أسلوب الترجمة في النصوص الدينيّة" وقع بينه وبين المطران أثناسيوس التنجني، مطران طرابلس والشام لطائفة الروم الملكيين الكاثوليك. ومفاد ذلك أنّ "لجنة الترجمة التابعة لجمعية نشر المعارف المسيحيّة"<sup>٤</sup>، ومقرّها لندن، كانت قد كلّفته ترجمة "كتاب الاختيارات من كتاب الصلوات العامّة وغيرها، مع الأدعية المعيّنة لأيام الآحاد ومعموديّة الأطفال... وهو غير كتاب "الصلوات العامّة مع مزامير داود" الذي ذكرناه آنفًا، والذي ترجمه الشدياق وطُبع سنة ١٨٤٠. فهذا الأخير مختصر للأوّل". فباشر الشدياق الترجمة إلى العربيّة "على ما اقتضته قواعدها". ولما زار التنجني لندن اتصل بأعضاء الجمعية وطعن بترجمة الشدياق معتبرًا أنّ "عباراتها إسلاميّة لا تتناسب مع أهل الكنيسة". وقد وقف أعضاء اللجنة على رأي التنجني، وأقالوا الشدياق من عمله في الترجمة وفي المطبعة. لكنّ الشدياق أُعيد إلى العمل نزولًا عند إصرار الدكتور صموئيل لي، وهو "من أساتذة كليّة ترينيتي في جامعة كمبردج"<sup>٥</sup>، وتمّ استدعاؤه إلى لندن لترجمة كتاب الاختيارات العامّة المطوّل.

<sup>١</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٤١-٤٢.

<sup>٢</sup>. مرجع نفسه، ص نفسها. يُراجع أيضًا: طرابلسي، فواز، و العظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٨.

<sup>٣</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٤٤.

<sup>٤</sup>. الاسم الحقيقيّ والكامل لهذه الجمعية هو: "الجمعية الإنكليزيّة لترقية المعارف المسيحيّة" واسمها بالإنكليزيّة: "The Bible Society to Foster the Knowledge of Christianity". يُراجع: الزّيجاني، أمين ألبرت، "شدياقية بيروت"، في الترجمات العربيّة للكتاب المقدّس وأثرها في حركة النهضة، محاضرة أُلقيت في الجامعة الأميركيّة في بيروت، ٢ تشرين الثاني ٢٠١٥، ص ١٥. وسنعمد هذا الاسم في الإشارة إليها في الصفحات اللاحقة.

<sup>٥</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٤٥-٥٣.

غادر الشدياق الجزيرة إلى لندن عام ١٨٤٦، في "سفينة النار" (الباخرة، واللفظتان من وضعه) واستمرت إقامته هناك نحوًا من ثمانية أشهر أُجْزَّ خلالها ترجمة "الاختيارات العائمة المطول". واستحسنت اللجنة الترجمة وبادرت إلى طبعتها مع مزامير داود في لندن عام ١٨٥٠. وكان الشدياق يتقاضى راتبًا شهريًا مقداره ١٢ ليرة طوال أشهر العمل، كما نال مبلغ ٢٥ ليرة كمكافأة، فضلًا عن نفقات السفر. ولما عاد إلى مالطا اكتشف سوء سلوك زوجته، فهزّه الحادث "بمثل ما هزّه" حادث شقيقه أسعد، وكوّن الجزء الآخر من شخصيته<sup>١</sup>.

أمر أخير نوّد الإشارة إليه في ختامنا الحديث عن "المرحلة المالطية" من حياة الشدياق. إنّه اضطرار الأمير بشير الثاني، المنفيّ وقتذاك في مالطا، اللجوء إلى الشدياق للقيام بالترجمة بينه وبين كبير رجال الاستخبارات البريطانيّة، "القادم من إنكلترا والمتوجّه من مالطه إلى برّ الشام واسمه كولونل مك نافن بكسر ما قبل النون" عندما طلب الأمير مقابلته. وقد ذكر الشدياق هذه الواقعة في رسالة منه إلى شقيقه طئوس مؤرّخة في ١٢ آذار عام ١٨٤١ نشرها يوسف إبراهيم يزبك في مجلته "أوراق لبنانيّة"<sup>٢</sup>، وأغفل ذكرها في كتابه "الواسطة في معرفة أحوال مالطه" الصادر في مالطه عام ١٨٤٣، ممّا دفع بمارون عبّود إلى الاستغراب والقول: "ها هو يسكت سكوت السمكة عن أسير مالطة (الأمير بشير)، مع أنّه كتب كتابًا برأسه عن مالطة، وكان هو فيها حين جاءها الأمير بشير منفيًا إليها. إنّ هذا ما يخيّرني..."<sup>٣</sup>.

### زيارة ثانية إلى تونس

عاد الشدياق إلى الجزيرة، وعاد إلى استئناف عمله السابق فيها. وفي أواخر العام ١٨٤٦ زار باريس، بدعوة من الحكومة الفرنسيّة، والي إيالة تونس المشير أحمد باشا. وفي ختام زيارته تبرّع لفقراء مرسيليا وباريس بمبلغ ماليّ. ولما بلغ خبر التبرّع الشدياق نظم قصيدة مشهورة<sup>٤</sup> في مدحه مطلعها:

زارتْ سعادٌ وثوبُ الليلِ مسدولٌ  
فما الرقيبُ بغيرِ النشرِ مدلولٌ

<sup>١</sup>. مرجع نفسه، ص ٥٦، ٥٨.

<sup>٢</sup>. يزبك، يوسف إبراهيم، "أثر لبنانيّ"، في أوراق لبنانيّة، المجلّد الأوّل، الجزء الأوّل، كانون الثاني، ١٩٥٥، الحازميّة، دار الرائد اللبناني، ١٩٨٣، لا طبعة، ص ٤٠. ونصّ الرسالة منشور كاملاً على الصفحتين ٤٠ - ٤١.

<sup>٣</sup>. عبّود، مارون، صقر لبنان، مرجع سابق، ص ٨٤.

<sup>٤</sup>. في هذه القصيدة عارض الشدياق قصيدة كعب بن زهير الشهيرة في مدح الرسول والتي مطلعها: بأنّ سعادٌ، فقلبي اليوم متبولٌ. وقد أمر الباي أحمد بمنعها لهذا السبب. وقد احترم الشدياق إرادة الباي ولم ينشرها إلّا بعد وفاته. وقد ترجمها إلى الفرنسيّة، شعراً، للمستشرق "غوستاف دوغا" عضو الجمعية الآسيويّة، وطبعها مع نصّها العربيّ عام ١٨٥١ في باريس (الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٦١، ١٨٨).

وبعث بها إليه. فأرسل "الباي" سفينة حربيّة أقلّت الشدياق وعائلته إلى تونس- في زيارة ثانية له لهذا البلد- حيث أقام لفترة حظي خلالها بالاحترام والتكريم، وكلفه أحد وزراء المشير أن ينقل إليه أبناء السياسة الدوليّة عن مصادر الأخبار وعن الصحافة الإنكليزيّة. وبعد عودته من تونس راح يعلّم في "كليّة سان جوليان البروتستانتية"، ويعطي دروسًا خصوصيّة في اللغة العربيّة وفي الترجمة لبعض الراغبين<sup>١</sup>.

### في إنكلترا

في هذه الأثناء قرّرت "لجنة الترجمة" التابعة ل"الجمعيّة الإنكليزيّة لترقية المعارف المسيحيّة" ترجمة الكتاب المقدّس، بعهديه، ترجمة جديدة إلى العربيّة عن لغاته الأصليّة. وكتب الدكتور "صموئيل لي" إلى الشدياق طالبًا منه القدوم، مصطحبًا عائلته، إلى إنكلترا<sup>٢</sup>.

غادر الشدياق وعائلته مالطا في أيلول ١٨٤٨ بعد أن قضى فيها نحوًا من ١٤ عامًا، فاصدًا إنكلترا، وتوجّه إلى مكان إقامة الدكتور "لي" في بلدة "بارلي"، ووصل إليها أواخر أيلول ١٨٤٨. وكان يعرف هذه البلدة جيّدًا إذ سبق له وأقام فيها عندما جاء إلى إنكلترا عام ١٨٤٦ لترجمة كتاب "الصلوات العامّة". وخلال إقامته في هذه البلدة فُجع بوفاة ابنه الأصغر أسعد بمرض الخانوق وهو في نحو السنتين من العمر. وانتقل الشدياق وعائلته، بعد هذه الحادثة، للإقامة في "كمبردج"، واستمرّت إقامته فيها لأكثر من سنة، واستمرّ في العمل على الترجمة. وراح يسعى، عندما شارفت على الانتهاء، للعمل في "تدريس العربيّة في إحدى كليّات أكسفورد ولكنه لم يُوفّق". وحاولت "اللجنة" تسهيل عودته إلى الجزيرة، لكنّه أبقى، وأصرّ على البقاء في أوروبا. فعادت اللجنة وأوكلت إليه أمر القيام "بتصحيح طباعة الكتاب المقدّس، سواء في لندن أو في باريس، وخصّصت له ٣٠ شلنًا في الأسبوع، لقاء هذا العمل"<sup>٣</sup>.

جاءت ترجمة الشدياق للكتاب المقدّس "أصحّ الترجمات بشهادة علامة زمانه المطران يوسف الدبس الشهير". أمّا هو فلم يكن راضيًا كلّ الرضى". ولقد عانى كثيرًا خلال عمله مع "صموئيل لي" عليها. وفي كتابه "كشف المخبّأ عن فنون أوروبا" وصف لموقف "الدكتور لي" منها، و"ساوسه" من السجع والتركيّب الفصيح، ومن الجمل التي "نتهي بالواو والنون، والياء والنون" واعتباره إيّاها "مضاهمة لكلام القرآن فيبدّلها". كما يأخذ الشدياق على "لي" تعصّبه الشديد للتوراة<sup>٤</sup>.

١. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٥٩-٦٢.

٢. مرجع نفسه، ص ٦٣.

٣. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٦٤-٦٦.

٤. عبّود، مارون، صقر لبنان، مرجع سابق، ص ٩٤-٩٦.

خلال هذه الفترة من إقامة الشدياق في إنكلترا حصل على "الرعوية الإنكليزية"، تقديرًا لشخصه وعلمه، وحافظ عليها طوال حياته "ليتقي بما غدر رجال الدولة العثمانية لأنّ هواه السياسيّ كان مع مصر"<sup>١</sup>.

### "باريس أو الحرّية"

أسباب عديدة جعلت الشدياق يغادر إلى باريس: وفاة طفله أسعد، وعدم حصوله على منصب تدريسيّ، ورفض "الجمعية الإنكليزية لترقية المعارف المسيحية" مساعدته في تدبّر أمره، "والنفور من طهرانية القساوسة البروتستانت وتزمتهم"، ورغبته في تعلّم الفرنسية، ورخص أسباب المعيشة، ومرض "الخفقان" الذي أصاب زوجته<sup>٢</sup>؛ كلّ ذلك دفعه إلى القنوط من إنكلترا والمغادرة إلى باريس.

أقام الشدياق في باريس نحوًا من ثلاثين شهرًا: من كانون الأول ١٨٥٠ لغاية حزيران ١٨٥٣. وفيها أُتيح له تعلّم الفرنسية فأتقنها بعد إتقانه الإنكليزية، وانصرف إلى قراءة بعض أعلام الأدب الفرنسيّ. وتعتبر فترة إقامته الباريسية هذه من أخصب فترات حياته تأليفًا وإنتاجًا. فخلالها وضع أهمّ مؤلفاته: "الساق على الساق في ما هو الفاريق" (طُبع في باريس طبعة أولى عام ١٨٥٥ على نفقة رافائيل كحلا الدمشقيّ)، وكتاب "سرّ الليل في القلب والإبدال" (في جزئين، طُبع الأوّل منهما فقط في الآستانة في المطبعة السلطانية عام ١٨٦٧، أمّا الثاني فلا يزال مخطوطًا)، وكتاب "الجالسوس على القاموس" (الآستانة ١٨٨٢)، وكتاب "منتهى العجب في خصائص لغة العرب" (عدة أجزاء، احترق)<sup>٣</sup>.

خلال إقامة الشدياق في باريس تسوّى له أن يعقد صلوات عديدة مع بعض المستشرقين، نذكر منهم: "المستشرق الكونت ديكرانج رئيس ترجمة الدولة"، و"المستشرق غوستاف دوغا" عضو الجمعية الآسيوية، وقد شاركه في تأليف كتاب "السند الراوي في الصرف الفرنسيّ" الذي طُبع في باريس عام ١٨٥٣<sup>٤</sup>. وعن لقاءاته الباريسية يُذكر أنّه التقى الشاعر الفرنسيّ "ألفونس دي لامارتين" (١٧٩٠-١٨٦٩)، وقد أكّد ذلك اللقاء في "فاريقه" (ص ٥٧٨)، وعاد وأشار إليه بصورة ملتبسة في مكان آخر (ص ٦٤٢). وعن صلواته بأعيان الجالية اللبنانية في فرنسا، نعرف "مخالطته" لبعض منهم لاسيّما "الشيخ مرعي الدحداح، المقيم في مارسيليا"، "وهجاءه" لقريب مرعي رشيد الدحداح صاحب مجلّة "برجيس باريس". كذلك فقد التقى الأمير عبد القادر الجزائريّ الذي قدم إلى باريس "بعد أن أطلقه نابليون الثالث من الإقامة الجبرية في أمبواز، ونظم قصيدة في مدحه سرّ بها الأمير، فاستدعاه إليه" وقابله بغاية الاحترام وبوسائل الأمراء في الإكرام<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup>. مرجع نفسه، ص ٩٨.

<sup>٢</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٦٧. يُراجع أيضًا: طرابلسي، فوز، و العظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ١٩.

<sup>٣</sup>. مرجع نفسه، ص ٧٠. يُراجع أيضًا: طرابلسي، فوز، و العظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ٢١.

<sup>٤</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٧٠.

<sup>٥</sup>. مرجع نفسه، ص ٦٨. يُراجع أيضًا: فوز، طرابلسي، و العظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ٢٠.

حادثة طريفة حصلت له في هذه الفترة يجدر ذكرها، وقد أوردتها الصلح مفصّلة. مفادها أنّ وفداً من حلب قوامه فتح الله مرّاش وشكري عبّود قدم إلى باريس، أثناء جولة أوروبية له لجمع التبرّعات لكنائس المدينة.. وعضو الوفد الثالث، "المطران أنثاسيوس التنجني، صاحب النزاع القديم مع الشدياق" لبث ينتظر في النمسا لأنّ دخول فرنسا ممنوع عليه. زار المرّاش وعبّود الشدياق مرّات، ولدى مغادرتهما إلى لندن افتقد كراريسه وعلم بسرقة بعضها "وهي من كتاب فيه مطاعن ألفه وعزم على عدم إفشائه". وبعد فترة زوّدت الكراريس إليه من "الجمعيّة الإنكليزيّة لترقية المعارف المسيحيّة" في لندن مع رسالة منها، فانكشفت له المكيدة التي دبرّها له التنجني ورفيقاه لإيذائه، لكنّ الجمعيّة لم تأبه لهم. ويرى الصلح أنّ الكتاب الذي لم يُردّ الشدياق أن يفشيه هو "مماحكات التأويل في مناقضات الإنجيل"، ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة الأوقاف في بغداد أمكنه أن يطّلع عليها<sup>١</sup>. ومن طرائف ما حصل له في باريس كذلك "اشتباه السلطات الفرنسيّة به على أنّه عميل بريطاني"<sup>٢</sup>.

عاش الشدياق في باريس حرّاً طليقاً، واستسلم للهو والمجون. فالزوجة اضطرت للمغادرة إلى مرسيليا بناءً على إشارة الأطباء، ومنها إلى اسطنبول بعد شفائها، يصحبها الابن الأصغر سليم، لأنّها فضّلت الإقامة هناك. لكنّها "عادت من اسطنبول إلى مالطا بسبب الضيق الناجم عن الحرب" التي اندلعت بين السلطنة العثمانيّة والأمبراطوريّة الروسيّة. وكان هو يعاني ضائقة ماليّة شديدة. فأخذ يتردّد على لندن بحثاً عن عمل، واضطرّ "أن يعمل في محلات الخواجه حوّا في لندن"، لكنّه فُصل بعد نحو سنتين. وخلال عمله في التجارة في لندن، أكّبت "على وضع كتابه" "كشف المخبّات عن فنون أوروبا" وهو كتاب رحلته الذي كان قد أعدّ موضوعاته ومراجعته منذ أن ترك مالطا سنة ١٨٤٨. في هذه الأثناء قدم إلى لندن الوزير التونسيّ خير الدين باشا، فبادر الشدياق إلى تهنئته ومدحه، فاستحسن ذلك منه "وتكرّم عليه بوظيفة حسنة عنده في تونس"<sup>٣</sup>.

### في تونس للمرّة الثالثة

غادر الشدياق إلى تونس مصطحباً زوجه الثانية الإنكليزيّة التي تزوّجها سنة ١٨٥٧ بعد وفاة زوجته الأولى<sup>٤</sup>. وقدموه إلى هذا البلد حصل في العام ذاته (١٨٥٧) على ما ذكر الأشر<sup>٥</sup>. والوظيفة التي أسندها الوزير التونسيّ إليه "هي مباشرة جرنال [ Journal ] عموميّ يشتمل على أخبار داخلية وخارجية معرّبة من اللغات الأجنبية وغير معرّبة. فإنّ المشار إليه عازم على إنشاء مطبعة عربيّة".

<sup>١</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٧٠ - ٧١.

<sup>٢</sup>. طرابلسي، فوزان، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ٢٠. يُراجع أيضاً ما أوردته الصلح في كتابه ص ١٢٣ عن هذه الحادثة نقلاً عن كتاب الشدياق "كشف المخبّات عن فنون أوروبا" ص ١٤٥.

<sup>٣</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٧٤ - ٧٨. وكتاب "كشف المخبّات عن فنون أوروبا" المذكور أعلاه، وكتاب الشدياق الآخر "الواسطة في معرفة أحوال مالطة" المذكور سابقاً، قيمة أدبيّة كبرى دفعت بمارون عبّود إلى القول بأنّ الكتاب الأدبيّ اللبنانيّ ابتدأ بالشدياق حين وضعهما (عبّود، مارون، صقر لبنان، مرجع سابق، ص ٧٤).

<sup>٤</sup>. طرابلسي، فوزان، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ٢١. ويؤكّد الصلح في كتابه، ص ٧٨، أنّ تاريخ زواجه الثاني غير معروف.

<sup>٥</sup>. الأشر، عبد الكريم، "أحمد فارس الشدياق"، في نصوص مختارة من الأدب العربيّ الحديث، النشر، ١، أعلام الرواد، مرجع سابق، ص ١٦١.

وهذا "الجرنال" وتلك المطبعة ليسا سوى "الرائد التونسي" ومطبعته<sup>١</sup>. وهنا يعود التضارب ليسود مجدّدًا بين الباحثين حول المهام التي تولّاها في تونس. ويؤكد الصلح- استنادًا إلى وثائق أُطلع عليها، وإلى غياب ما ينمّ عن قلم الشدياق في أعداد "الرائد"- أنّ الشدياق، بعد أن تمّ تأسيس مطبعة الرائد، لم يتولّ "مهام الرائد التونسي كما كان منتظرًا، وكما هو شائع بين الأدباء". ويرجح أن يكون السبب عائداً إلى ضغوط مارسها القنصل الإنكليزيّ لصالح أحد مواطنيه، فضلاً عن النفور بين الشدياق وبين الشيخ محمود قبادو أحد رجال بلاط "باي" تونس. ولما وجد الشدياق أنّ الحال ضاق في وجهه فضّل "الانتقال إلى الآستانة فترك تونس في نحو السنة ١٨٥٩ وربّما قبلها"<sup>٢</sup>.

من أهمّ وقائع حياة الشدياق، في تونس، اعتناقه الإسلام "على يد مفتي الحنفية محمد بيرم الرابع". ولقد أضاف إلى اسمه اسم أحمد "تيمناً باسم الباي المصلح، وقد كُتِبَ بأبي العباس"<sup>٣</sup>. وقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في تعليل الأسباب التي دفعته إلى إشهار إسلامه. فبعضهم ردها إلى منافع ماديّة، وإلى طمعه في تولّي المناصب كالأب لويس شيخو اليسوعيّ. وبعضهم الآخر زاد عليها دوافع دينيّة وثقافيّة، بحيث إنّ الدافع الدينيّ يُردّ إلى رغبته في القطيعة مع المسيحية "بكنيستها المارونيّة ومرسليها البروتستانتين". والدافع الثقافيّ يُردّ إلى رغبته في الملاءمة بين "انتمائه إلى اللغة والثقافة العربيّتين وبين الديانة التي حملتها ونشرتها على العالم"<sup>٤</sup>. وبعضهم الثالث ردها إلى اقتناعه بالإسلام كدين، ولا يستبعد منها رغبته في الاندماج "في جوّ التراث الحضاريّ والفكريّ واللغويّ الذي عاش فيه بحكم ميوله ومواهبه واحترافه"<sup>٥</sup>.

### الآستانة ومرحلة الجوائب

غادر الشدياق تونس قاصداً الآستانة قريباً من العام ١٨٥٩ وربّما قبله على ما ذكرنا سابقاً<sup>٦</sup>. ونذكر أنّ الفرصة سنحت له بالقدوم إلى الآستانة لتولّي وظيفة في ديوان الترجمة السلطانيّ قبل تولّيه عملاً تجاريّاً في محلات السيّد حوّا في لندن، لكنّه لم يفعل<sup>٧</sup>. وحين قدومه إلى عاصمة السلطنة، كانت الأجواء مؤاتية له. ف"سامي باشا"<sup>٨</sup> على رأس وزارة المعارف، والرجلان على معرفة وثيقة سابقة، واحدهما

<sup>١</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٧٧-٧٨.

<sup>٢</sup>. مرجع نفسه، ص ٨١-٨٣.

<sup>٣</sup>. مرجع نفسه، ص ٨٣.

<sup>٤</sup>. طرابلسي، فوزان، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ٢١-٢٢.

<sup>٥</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٨٣.

<sup>٦</sup>. لم يجمع دارسو الشدياق على تحديد سنة بعينها كتاريخ لقدمه إلى الآستانة. فيوسف أسعد داغر يعيّن العام ١٨٥٧ (ص ٤٥٩)، وطرابلسي والعظمة يحدّدان العام ١٨٦٠ (ص ٢٢).

<sup>٧</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٧٤.

<sup>٨</sup>. للتعريف بهذا الرجل ونشاطه يُراجع: الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٣٥-٣٧.

بالآخر، تعود إلى يوم قدم الشدياق إلى مصر، وعمل في جريدة "الوقائع المصريّة" حين كان سامي باشا مديرها ورئيس تحريرها. فتمّ تعيينه مصحّحاً في المطبعة السلطانيّة، ثمّ رئيساً للمصحّحين فيها بعد ذلك. وأخيراً، أنشأ الجوائب، الصحيفة والمؤسسة<sup>١</sup>.

حين قدوم الشدياق إلى الآستانة، كان جوّ العاصمة مهيباً للمشروع الصحفيّ الذي كان يعتزم إنشائه. فمن ناحية أولى، بلغ النزاع العثمانيّ الروسيّ أوجه، وطغى على ماعداه من تحدّيات أخرى تواجهها السلطنة، وبات ملتقى لمطامح الدول الأوروبيّة الكبرى ومصالحهم. ومن ناحية ثانية، كانت قد تكوّنت لديه خبرة نادرة في مزاوله العمل الصحافيّ اكتسبها من مصدرين: الأوّل عمله في "الوقائع المصريّة"، يوم كان في مصر وكان "سامي باشا" مديرها ورئيس تحريرها، والثاني يوم ساهم في إنشاء "الرائد التونسيّ" ومطبعة الرائد. وجاء عمله في المطبعة السلطانيّة ليغني خبرته هذه. وزاد من حماسه في الإقدام على تأسيس "الجوائب" ما كان في باله "من أسماء أشخاص ومؤسّسات وقوى محليّة ودوليّة ترخّب بصدور جريدة من هذا النوع"، من مثل خديوي مصر، والوزير التونسيّ خير الدين باشا، والحازندار التونسيّ، وتقاطع المصالح البريطانيّة. أضف إلى ذلك وزير المعارف السلطانيّ- وقد ورد ذكره- والصدر الأعظم فؤاد باشا<sup>٢</sup>.

تأسّست جريدة الجوائب الأسبوعيّة ذات الصفحات الأربع، واللفظة جمع "جائبة" التي تعني الخبر الطارئ، وصدر العدد الأوّل منها في اليوم الموافق لـ ٣١ أيار ١٨٦١، وليس في تمّوز/ يوليو من العام ذاته كما ورد عند طرابلسيّ والعظمة (ص ٢٢). وبعد أيّام من صدور العدد الأوّل توفّي السلطان عبد المجيد، وخلفه السلطان عبد العزيز. فخصّص العدد الثاني منها لوقائع الحدث المزدوج، وصدر متضمّناً نبذة عن السلف والخلف، "وخبراً مفصّلاً عن تنصيب" الثاني، وخطاب التنصيب الذي ألقاه، وفيه "توجيهاته في الحكم وإرادته السنيّة..."<sup>٣</sup>.

واجه الشدياق صعوبات هائلة في إصدار الجوائب. وصعوبات العمل الصحافيّ يدركها جيّداً من كابد مشقّة العمل في هذا المجال، أو بادر إلى تأسيس مطبوعة صحافيّة. لم يكن لديه جهاز أو هيئة متخصصة تُنشط بها الأعمال، من تحرير أو ترجمة أو اطلاع على الأخبار الرسميّة، فضلاً عن تضييب الأعداد وإيصالها إلى المشتركين. ولم يكن للجوائب مطبعة خاصّة بها، ولا عمّال متخصصين في هذا الفنّ<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup>. مرجع نفسه، ص ٨٤.

<sup>٢</sup>. مرجع نفسه، ص ٨٥-٨٦.

<sup>٣</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ٨٨-٨٩. وللمزيد من المعلومات حول ما يتضمّنه العدد الأوّل من الجوائب، وأماكن وجود أعدادها، وقياس الصفحات وتقسيمها، وكيفيّة توزيع الموضوعات على صفحاتها الأربع، وغير ذلك، يُرجع المرجع نفسه، ص ٨٨-٩٢.

<sup>٤</sup>. مرجع نفسه، ص ٩٢-٩٤. وفي هذه الصفحات يعرض المؤلّف للصعوبات اللوجستيّة، إذا صحّ التعبير، التي عاناها الشدياق في إصدار جريدته وتأثير ذلك عليها.

## الجواب بين التوقف والتعطيل ومعاودة الصدور

توقّفت الجوائب عن الصدور مرّات ثلاث. المرّة الأولى بعد نحو تسعة أشهر من تاريخ صدور العدد الأوّل منها، فكان العدد ٣٦ هو الأخير في هذه المرحلة الأولى من عمرها. والسبب عجز الشدياق عن متابعة تمويلها، فأوقف إصدارها. لكنّ الصدر الأعظم فؤاد باشا بادر إلى المساعدة، على أساس اتفاق بين الطرفين، فعادت إلى الصدور. ولم يكتف الشدياق نبأ المساعدة، وبادر إلى نشره على صفحات جريدته. وبعد استئناف صدورها ترك ابنه سليم وظيفته في تونس، وانضمّ إلى والده يساعده في العمل. وبعد استقرار الأمور نسبياً، عاد إلى تونس، وعمل مستشاراً في الخارجية التونسية<sup>١</sup>.

في هذه الفترة أصابت الجوائب نجاحاً مرموقاً، وأصبحت أشهر صحيفة عربيّة، وأصبح لها قراءؤها ومشتروها، فشر الشدياق بشيء من الاستقرار. وبعد أن ظلّت جريدته تُطبع في المطبعة السلطانيّة على مدى سنوات تسع، راح يسعى لإنشاء دار طباعة خاصّة به. وتضافرت عوامل عديدة دفعته للانفصال عن المطبعة السلطانيّة، منها أنّ سعة "دائرة انتشارها" جعلت المطبعة تضيق عليها، ومنها الأزمة التي نشبت بين السلطان والحديوي إسماعيل عام ١٨٦٩ وجعلت من المتعذّر أن تُطبع في مطبعة الدولة "وهي من المناصرين" للأخير. يُضاف إلى ذلك المساعدة الماليّة التي أمدها بها الوزير التونسيّ "مصطفى الخزنة دار"، ومسألة الإدارة التي أمكنه تدبّر أمرها "بعودة ابنه سليم من تونس نهائياً ليتفرّغ لمساعدة والده<sup>٢</sup>. جميع هذه العوامل تضافرت لتمكّن الشدياق من تأسيس المطبعة الخاصّة به.

صدر العدد ٤٢٥ من الجوائب عن المطبعة الجديدة المنشأة. وانتقل مقرّها مرّات عدة من مكان إلى آخر إلى أن استقرّ أخيراً<sup>٣</sup> في الرقم ٨ أمام الباب العالي، وعلى بُعد خمسين ذراعاً<sup>٤</sup>. وفي هذه الفترة بلغت الجريدة عصرها الذهبيّ، فزاد عدد مشتريها ووكلائها، واشتركت في وكالات الأخبار رويتر وهافاس وبوله، ثمّ أصبحت تصدر مرّتين في الأسبوع<sup>٥</sup>، وعمدت، في بعض أعدادها، إلى زيادة عدد الصفحات من أربع إلى ثمان. ولم تكن المطبعة لتكتفي بطباعة أعداد الجريدة، بل بادرت إلى طباعة الكتب<sup>٦</sup>، ومنها بعض كتب الشدياق كـ"الواسطة" و"كشف المخبّات"، وغيرها.

استمرّت الجوائب في الصدور والانتشار. وفي العام ١٨٧٩، اشتدّت الأزمة بين الباب العالي وحديوي مصر إسماعيل. ولما خُلع عن ولاية مصر رفضت الجوائب أن تنشر، بالعربيّة، المقال الذي نشرته جريدة "ترجمان حقيقت" التركيّة، وفيه تشهير بسمعته. ولهذا السبب صدر قرار تعطيلها لمدة ستة أشهر<sup>٧</sup>. فتوقّفت الجوائب عن الصدور، للمرّة الثانية منذ إنشائها<sup>٨</sup>.

<sup>١</sup>. مرجع نفسه، ص ٩٥-٩٧.

<sup>٢</sup>. مرجع نفسه، ص ١٠٠-١٠١.

<sup>٣</sup>. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ١٠٢.

<sup>٤</sup>. مرجع نفسه، ص ١٢٢؛ طرابلسي، فؤاد، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ٢٣. ولزيد من المعلومات حول قرار التعطيل هذا راجع نصّه وجواب الجوائب عليه

في كتاب طرابلسي والعظمة ص ٤٠٥-٤٠٧.

كان من سياسة الجوائب أن تنشر الأنباء المتعلقة بالبلاد العربيّة، حتّى تلك التي يتمتع منها الباب العالي. وفي العام ١٨٨٤، عند نشوب أزمة السودان، منعت دائرة المطبوعات نشر ما يتعلّق بما. غير أنّ الجوائب لم تتقيّد بهذا المنع، فصدر مرسوم تعطيلها تعطيلاً نهائياً في العام ذاته. وكان العدد ١١٧٧ آخر أعداد الجريدة في ترتيب سلسلة الصدور<sup>٢</sup>.

## الفصل الأخير

قبل تعطيل الجوائب النهائيّ بفترة زمنيّة تقارب السنتين أو الثلاث، بدأ الشدياق ينسحب من العمل، بسبب تقدّمه في السنّ، وضعف البصر الذي أصابه في عينيه. وجلب "احتجاب الجوائب" النهائيّ احتجاب الموارد الماليّة معه، فوقع الشدياق في الحاجة مجدّداً<sup>٣</sup>. وفي العام ١٨٨٦ قام بزيارة مصر، لطلب تعيين معاش له، فلاقى "حسن الوفاة، وزاره الوزراء والعظماء"، واستقبله الخديوي توفيق الأوّل الذي "ذكر خدمته للشرق"، ولم يتلّ غير ذلك. نقل جرجي زيدان خبر هذه الزيارة، ووصف الرجل وصفاً شيقاً وهو في هذه المرحلة المتقدّمة من مراحل العمر، ونقله عنه العديد من الباحثين، ومنهم عبّود وطرابلسي، فإذا هو على ذكائه وانتباهه، وحلاوة حديثه، وطلاوة عبارته، مع ميل إلى المجون<sup>٤</sup>.

عاد الشدياق إلى الآستانة، وراح الضيق المادّي يُمسك بخناق أكثر فأكثر. وكتب، "قُبيل وفاته بنحو ثلاثة أسابيع"، إلى ناظر العدليّة جودت باشا عارضاً له ما يعانیه من ضيق مادّي، وقد فاقمه فقْدُه بصره وضعف اعتراه، طالباً منه رفع أمره إلى السلطان، علّه يعيّن له معاشاً يكفيه مؤونة الحاجة التي هو فيها. لكن قدر الشدياق رسم أن "ينطفأ" قبل ورود الجواب. حصل ذلك في ٢٠ أيلول ١٨٨٧<sup>٥</sup>. "وصدرت الإرادة السنيّة بدفنه في تربة السلطان محمود، فالتمس ولده سليم أن يُدفن في جبل لبنان عملاً بوصيته، فأذن بذلك". وينقل عبّود، عن عدد معاصر لجريدة لسان الحال، وقائع وصول الجثمان إلى بيروت (صباح ٥ تشرين الأوّل) على متن باخرة نمساويّة، والاستقبال الحاشد الذي استقبل به، ووصوله إلى الجامع العمريّ الكبير حيث صلّي عليه، وأخيراً الموكب الذي سار به إلى المكان الذي دُفن فيه<sup>٦</sup>، والواقع في منطقة الحازميّة على طريق بيروت دمشق القديمة، في عقار صغير يُعرّف - عند العامّة - ب"قبور الباشا". ولا يزال ضريحه قائماً هناك، وإلى جانبه عدد من أضرحة بعض المتصرّفين الذين حكموا متصرّفية جبل لبنان.

<sup>١</sup> . يورد الصلح في الحاشية ٣١ من حواشي الفصل الثاني من كتابه، على الصفحة ٢٤٠ منه، أنّ الجوائب تعطلت لمدة شهرين عام ١٨٦٩ بسبب الخديوي إسماعيل، ولا يقَدّم أيّ

تفصيلات إضافية. وإذا صحّ ذلك فإنّ توقّف الجوائب عن الصدور ينبغي أن يكون قد حصل ثلاث مرّات قبل توقّفها النهائيّ عام ١٨٨٤.

<sup>٢</sup> . الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ١٢٤.

<sup>٣</sup> . الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ١٢٦.

<sup>٤</sup> . عبّود، مارون، صقر لبنان، مرجع سابق، ص ٩٠؛ طرابلسي، فواز، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، ٢٤.

<sup>٥</sup> . الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ١٢٦-١٢٧.

<sup>٦</sup> . عبّود، مارون، صقر لبنان، مرجع سابق، ص ٩٩-١٠٠.

## ملحق

### على هامش سيرة أحمد فارس الشدياق

يتضمّن هذا الملحق نبذات أربع تتعلّق بالشدياق. ونظرًا لما يمكن أن تُلقيه من أضواء إضافية على شخصيّة الرجل ومكانته، أفردنا لها حيّزًا خاصًّا على هامش سيرته. النبذة الأولى تتعلّق بعائلته، زوجة وأولادًا، والثانية تتناول ولاءه السياسيّ، والثالثة تلخّص موقفين له من قضيتين تختصّان بلبنان كانتا مطروحتين في زمانه، والرابعة والأخيرة تدور حول مناظراته.

### العائلة

أنجب الشدياق ثلاثة أبناء من زوجته الأولى وردة الصولي، ولا أبناء له من زوجته الثانية، الإنكليزيّة، وهم: سليم (١٨٣٦ - ١٩١٠)، وفايز (١٨٣٨ - ١٨٥٦)، وأسعد، توفّي في لندن عن عمر سنتين ودُفن فيها، وذلك خلال إقامة الشدياق في المدينة لمعاونة "صموئيل لي" في ترجمة الكتاب المقدّس.

أمّا ابنه البكر سليم فقد وُلد في مالطا عام ١٨٣٦ وليس في القاهرة عام ١٨٢٦ كما ذكر مسعد، وتوفّي في مدينة "سان ريمو" في إيطاليا عام ١٩١٠ وليس في "لنדרه" [لندن] عام ١٩٠٦ على ما ذكر مسعد أيضًا. تنقّل بين عدد من البلدان منها تونس حيث عمل مستشارًا في الخارجيّة التونسيّة، ثمّ جاء إلى الآستانة لمعاونة والده في تحرير الجوائب، وما لبث أن استقلّ بتحريرها تحت إشرافه إلى أن تمّ تعطيلها عام ١٨٨٤. انتقل بعدها إلى القاهرة حيث أنشأ جريدته الخاصّة. زار باريس ولندن وإيطاليا حيث قضى. قدم من باريس إلى الآستانة قبل يوم واحد من وفاة والده. رافق جثمان والده على متن الباخرة النمساويّة التي أقلّته إلى بيروت.

لعب سليم دورًا هامًّا في السياسة العثمانيّة، لاسيّما مع رجال "تركيا الفتاة" لأنّه كان واحدًا منهم، وكان من أعوان الخديوي اسماعيل باشا وابنه توفيق باشا. رحل عن ابنة وحيدة أسماها "روز"، على اسم والدته وردة، وهي مسلمة من أمّ جركسيّة تزوّجها في الآستانة بعد تركه "صفيّة هانم" زوجته الأولى، البريطانيّة الأصل والتي اعتنقت الإسلام قبل زواجهما. وإلى هذه الابنة آلت ثروة والدها الطائلة، بما في ذلك "الذخائر الأدبيّة النفيسة المتروكة عن جدّها" أحمد فارس<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup>. حشيمه، الأب كميل اليسوعيّ، "الشدياق، سليم"، في المؤلفون العرب المسيحيّون من قبل الإسلام إلى آخر القرن العشرين، الجزء الخامس، بيروت، لبنان، دارالمشرق، طبعة أولى، ٢٠١٣. ولقد أخذنا بما ذكره حشيمه في هذا الصدد وتركنا ما ذكره مسعد في كتابه فارس الشدياق، ص ٤٧.

<sup>٢</sup>. مسعد، بولس، فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ٤٧ - ٤٨. وللمزيد عن مصير "ذخائر" الجدّ الأدبيّة، تُراجع تنمّة الصفحة ٤٨ من هذا الكتاب.

## الولاء السياسي

تنقل الشدياق بين بلدان عديدة، وكان مقرّبًا من رجالها العظام، ويعاونهم في بعض شؤون دولهم العامّة. ففي تونس عاون المشير أحمد باشا، وكان معجبًا بوزيره مصطفى الخزنة دار، والوزير الآخر خير الدين باشا الذي تولّى الصدارة العظمى في اسطنبول عام ١٨٧٨. هذا فضلًا عن صلاته بحكّام مصر، لاسيما الخديوي إسماعيل، وموالاته لهم. وقد عانى كثيرًا جراء ولاءه هذا، وتسبّب بتعطيل الجوائب، على ما مرّ معنا. أمّا موقفه من الإنكليز فمما لا شكّ فيه أنّه كان معجبًا بهم، من نواحٍ عديدة، إلّا سياستهم فهي شأن آخر. وكان يحمل "الرعيّة الإنكليزيّة ليتّقي بها غدر رجال الدولة العثمانيّة لأنّ هواه السياسيّ كان مع مصر". وكانت "الجوائب" موالية للسلطان ولأهّ يشوبه فتور أحيانًا، فيتّم تعطيلها بسببه. وفي السياسة الإسلاميّة كانت "تلتزم بالدفاع عن أيّ قطر أو بلد إسلامي"، وكذلك القول في ما يختصّ بقضايا العرب، فقد رفضت نشر خطاب السلطان عبد الحميد في افتتاح مجلس الأعيان "لأنّه وُزِع على الصحف مُترجمًا إلى الفرنسيّة، ولم يُوزع مُترجمًا إلى العربيّة. فشرع الباب العالي، منذ ذلك الوقت، يترجم إلى العربيّة جميع ما يصدر عنه".<sup>١</sup>

## موقفان مختصّان بلبنان

نشير، هنا، إلى موقفين مميّزين للشدياق يدلّان على جرأته، وتُعد نظره، وتمسّكه بمبادئه، وحبّه للبنان. الأوّل وقوفه إلى جانب يوسف بك كرم الذي كان ينادي بتعيين حاكم وطني على رأس المتصرفيّة، خلافًا لما أقرّه بروتوكول ١٨٦١. وعندما شارفت فترة المتصرف داود باشا الأولى على الانتهاء، وأن الأوان لإعادة النظر في وجوب كون المتصرف لبنانيًا أم غير لبناني، نشط يوسف بك كرم تحقيقًا لغرضه، واشتدّت الأزمة بينه وبين المتصرف، وتزايدت الضغوط الدوليّة عليه للرضوخ وقبول "وظيفة في حكومة داود باشا إن هو أراد الرجوع إلى لبنان". فما كان من الشدياق إلّا أن نشر مقالًا في الجوائب "أشار فيه إلى اضطراب الحال في لبنان، وخلوّه من الراحة الحقيقيّة"، وإلى نقمة الأهالي جرّاء سوء إدارة المتصرف لشؤون البلاد. ولقد كان لذلك المقال وقع قويّ ألزم مجلس الإدارة اللجوء إلى إجراءات معيّنة للحدّ من تردّداته.<sup>٢</sup>

والموقف الثاني الذي يستأهل التنويه هو ذلك الذي اتّخذه يوم زار ابن خاله، البطريك بولس مسعد، الآستانة، والمصالحة التي جرت هناك بين الرجلين. ففي أيار عام ١٨٦٧، خرج البطريك في زيارة إلى روما وباريس والآستانة، ساعيًا لكسر إرادة المتصرف في ما يدّعيه من حقّ في تثبيت البطريك والمطارنة الموارنة في مناصبهم. وفي الآستانة، وبمساعٍ بذها الشدياق، تمكّن مسعد من مقابلة السلطان الذي منحه وسامًا رفيعًا. وفي اللقاء بين البطريك والشدياق، الذي روى خبره يوسف إبراهيم يزبك ونقل طرابلسي والعظمة روايته في

<sup>١</sup> الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ١٢١-١٢٣.

<sup>٢</sup> رستم، أسد، "داود يستهوي"، في لبنان في عهد المتصرفيّة، مرجع سابق، ص ٥٣-٥٤. وحول إجراءات مجلس الإدارة يُراجع أسد رستم، ص ٥٤.

كتابهما، أكّد الأوّل أنّه لم يكن موافقاً على ما فعله البطريك حبيش بأخيه أسعد، وأكّد الثاني بأنّه لن يجادل بعد الآن من أن يكون مسيحياً مارونياً<sup>١</sup>.

## المناظرات

عُرِفَ الشدياق بحبّه للمناظرة. ومناظراته مع أعلام من زمانه مشهورة، وهي تتسم بالعنف الكلامي، والتجريح الشخصي، في مواضع كثيرة منها. وإنّا نوّد أن نتطرّق، هنا، إلى ثلاث منها. الأولى مناظرته مع المطران أنناسيوس التنجني، والثانية مناظرته مع الشيخ إبراهيم اليازجي، والثالثة مناظرته مع "برجيس باريس".

المناظرة الأولى تمّ التطرّق إليها سابقاً، حين تناولنا عمل الشدياق في ترجمة بعض كتب المبشرين الدينيّة، وما كان لها من أصداء تردّدت في أوساط المبشرين في مالطا، ولدى رؤسائهم في لندن وفي جبل طارق. وهي تشكّل الحلقة الأولى من سلسلة المناظرات التي قامت بينه وبين خصومه. ومن نتائجها أنّها أدّت إلى كفّ يده عن الترجمة لفترة، لكنّ المبشرين عاودوا تكليفه بعدما تأكّدت لهم مقدّراته اللغويّة التي لا تُجارى.

أمّا المناظرة الثانية فهي التي جرت وقائعها بينه وبين الشيخ إبراهيم اليازجي، وهي من أشهر مناظراته، وشارك فيها العديد من جهابذة العربيّة، بحيث انقسم المتناظرون إلى حزبين: الشدياقيّون واليازجيّون. في "الحزب الشدياقيّ" انضمّ كلٌّ من: الشيخ إبراهيم الأحمد، والشيخ يوسف الأسير، والشيخ عبد الهادي نجّ الأبياري، ومخايل عبد السيّد، وسليم نوفل، وسواهم. وفي "الحزب اليازجيّ" انضمّ كلٌّ من: المعلّم بطرس البستاني وابنه سليم، وسعيد الشرتوني، وآخرين. ولقد كُتِبَ حولها الكثير، وربّما آخره ما كتبه "أمين نخلة سنة ١٩٥٨ في كتابه "الحركة اللغويّة في لبنان"<sup>٢</sup>.

تبقى المناظرة الثالثة والأخيرة وهي التي جرت وقائعها بينه وبين مجلّة "برجيس باريس"، التي أنشأها الشيخ رُشيد الدحداح في باريس كما يرى البعض، "لكنّ الشدياق يقول في رسالته إلى الشيخ يوسف الأسير إنّ صاحبها هو سليمان الحريري"، وهو من تونس في الأصل. وقد دأبت المجلّة على الترويج للسياسة الفرنسيّة في الجزائر، والقدح "في الدولة العليّة، بل في جميع ولاة المسلمين"<sup>٣</sup>. وفي العام ١٨٥٨ رُوّجت لمشروع نابوليون الثالث القاضي بإنشاء إمارة عربيّة في سوريا بقيادة الأمير عبد القادر الجزائريّ<sup>٤</sup>. حمل الشدياق على "البرجيس" على صفحات الجوائب، وانتصر له عدد كبير من كتّاب زمانه وشاركوه حملته، ومنهم الشيخ يوسف الأسير، وإبراهيم

١. طرابلسي، فوّاز، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ٢٥.

٢. الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ١١٥-١١٩.

٣. مرجع نفسه، ص ١١٤-١١٥.

٤. طرابلسي، فوّاز، والعظمة، عزيز، أحمد فارس الشدياق، مرجع سابق، ص ٢٠-٢١.

الأحذب، ونعمان الألوّسي، وكثيرون غيرهم. وظلّ الشدياق يفاخر بحملته على هذه المجلّة طوال أيّام حياته، حتّى إنّ ذكرها في رسالة أخيرة له، قبل وفاته بنحو ثلاثة أسابيع، إلى جودت باشا<sup>١</sup>.

---

<sup>١</sup>.الصلح، عماد، أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، مرجع سابق، ص ١١٥.